قصة قصيرة

ألعاب أمريكية

عبد الخالق الركابي

مرة أخرى كان عليه أن يموت. خطرت الفكرة في ذهنه، وسمعه مشدود لصخب العصافير التي طارت بغتة على ارتفاع خفيض، مفجّرة صمت الدغل المطبق برفيف أجنحتها. وسمع المياه تتناثر مدوّمة حول سيقانهم وهم يعبرون النهر، هناك في الطرف الآخر من دغل الطرفاء المغبر. وفاحت رائحة الطحالب العطنـــة. وفي الأعـلى اعتور طـيران النوارس شيء من الاضطراب.

ازاء ركبته المغروسة في الرمل قذف ببقايا الأوراق التي أضجره مضغها، فسالت البصقة خضراء اللون. ولحس شفتيه المالحتين قبل ان يهمس محذراً:

- هاني... انهم قادمون!

وعلى يساره لم يرَ من (هاني) سوى ساقه القصيرة الممتلئة وهي تهتز. انه لا يكفّ عن عبثه ابداً، ولا شك ان جسده السمين الغاطس وسط شجيرات الطرفاء يختضّ الآن بضحك مكتوم. ومن الخلف جاءه همس (حيدر) و (كامل) محذّرين إيّاه. أسند يده على فخذه واشرأبّ بعنقه مطوّفاً بنظره على امتداد رؤوس الطرفاء المقبّبة. قد يكون واهماً فيما سمعه، وإلا فأين هم؟ وثبّت عينيه على اشجار الصفصاف والغرب الرخوة القائمة عند حافة الدغل، وهي تتأرجح امام ريح عابرة. الا يحتمل أنهم يتقدّمون زاحفين؟ وفوجيء بالشجيرات تهتزّ بعنف لينبثق من وسطها وجه (أحمد) الشاحب كأنه نبع من تحت أنفه بالضبط. لحظتئذ أدرك أنهم حقاً كانوا يزحفون. لكن إدراكه ذاك جاء متأخراً، فقد باغته (أحمد) بوخزة من فوهة بندقيته في الجانب الأيسر من صدره، مخالفاً بذلك العهد الذي اتّفقا عليه سراً بأن لا يصيب أحدهما الآخر. لكنه غدر به وأصابه، فلم يجد بداً من ان يقفز تاركاً بندقيته تنزلق من يده. ودار حول نفسه وهو يسمع وقع خطى المهاجمين ينسحبون - بعدما أصابوا (هاني) أيضاً - نحو مواضعهم في الجانب الآخر للنهر. ورأى السماء زرقاء تماماً لحظة هوى على ظهره وسط النباتات الشائكة. وقبل ان يغمض عينيه ويموت لمح (هاني) يترنّح بطريقة خرقاء مندفعاً باتجاهه ليهوي بجسده السمين على صدره كاتماً عليه أنفاسه. وفي محاولة لئيمة ليهشم أضلاعه بالغ باحتضاره فوق صدره قبل أن يموت بدوره. لحظتئذ تمنى لو يلكمه على أنفه الافطس. لكن كيف يصح ذلك وهو ميت؟! فأفرغ غيظه بغرز أصابعه في الرمل. وأمام وهج الشمس الساطع أغمض عينيه باحكام فشرعت البقع الخضر والزرق تعوم تحت أجفانه في بحر دام.

وطال همس (كامل) و (حيدر) وهما يتناقشان بجدية مفرطة في الطريقة الصحيحة لنقل جثتيهما، وهل يرفعانهما على الأيدي أم يسحبانهما؟ وبدا من الواضح ان (هاني) قد ارتاح للوضعية التي اختارها في موته، فقد لبد ساكناً على صدره بثقله الكافر، فنفد صبره وأنثنت ركبته تلقائياً مودعة ذلك البطن الرخو ركلة أفرغ بها غيظه. وأزاحه جانباً وجلس وسط استنكار (كامل) و (حيدر) اللذين هتفا به بصوت واحد:

- ما هذا؟ لم ننته بعد!

فصرخ بهما بدوره:

- لن ألعب... فهاني كاد يهشم أضلاعي!

وكانت اللعبة قد فقدت سحرها واعتورها الفتور. ومن الجانب الآخر للنهر عاد الصبية الأربعة الآخرون الذين كانوا أعداء قبل لحظات فرمى نحو (أحمد) الذي غدر به بنظرة وعيد. ولكي يبرهن (هاني) على أن الركلة لم تؤلمه شرع يتقافز بجسده الثقيل بخفة عجيبة أثارت حسده، فودّ من أعماق قلبه لو نفّذ ما

دار في ذهنه قبل لحظات ولكمه على أنفه.

- لن نلعب معك بعد الان..... والليلة سنذهب إلى هناك دونك!

كان ذلك قرارهم النهائي، وقد نطق به (كامل) الذي أهّله طول قامته والزغب الأخضر الذي يعلو فمه لقيادتهم على الدوام. وشفع قراره بأن سحب منه بندقيته الخشبية مفرداً إيّاه من مجموعتهم إلى الأبد. وأولوه ظهورهم المتعجرفة متّخذين طريقهم نحو القرية.

لن يلعبوا معي!.... في هذه الحالة من الذي يموت؟ وبمزيج من السخط والنقمة فكر بسر اختيارهم الدائم له لكي يكون ضمن الموتى!

- ليكن..... سأذهب وحدي إلى هناك!

وواصلوا سيرهم كأنهم لم يسمعوه، سوى (هاني) الذي استدار نحوه وصاح:

- لن تجرؤ فأنت تخاف الظلام!.... ثم هناك هاشم الحارس الذي سيسلخ جلدك ان وقعت بين يديه!

لن أجرؤ؟ واستدار جانباً متطلعاً بشيء من الخوف نحو التل البعيد المنتصب شرقي القرية، وإلى الوراء منه، تحت سماء عميقة الزرقة، امتدت الجبال وردية اللون.

- لكنني سأذهب في ظهيرة الغد.

وبعدما قام (هاني) بقفزة بارعة في الهواء أحاط فمه براحتيه المكورتين كالبوق وصرخ وهو يتقهقر بظهره إلى الوراء ليلحق بهم:

- عندئذ يكون الجنود قد وصلوا ورفعوا الحطام بكامله.

في تلك اللحظة أدرك مبلغ غبائه لأنه لم يلكمه على أنفه فقد قال الصدق.

- اسمعوا.... إن ذهبتم الليلة إلى هناك دوني سأشي بكم صباح الغد إلى المعلّم!

لكنهم لم يسمعوه فقد انحدروا نحو بطن الوادي. ولم تمر سوى لحظات حتى لحقهم مثل سبعة جراء ملطخة بالوحل وهم يرتقون الحافة الثانية للوادي ليدخلوا القرية.

نعم... سأشي بهم!

وحاول القفز مثل (هاني) لكنه سقط على وجهه وامتلأ فمه بالرمال، فبصق بغيظ وهو يتخذ بدوره طريقه نحو القرية.

ما كاد يطأ بقدمه عتبة البيت حتى استقبلته أمه بالصياح. وعندما رأت ملابسه ملطخة بالوحل تحول صياحها إلى صراخ مطعّم بشتائم من العيار الثقيل. وانفلت ثديها الممطوط من فم طفلتها الرضيع التي شرعت تبكي بمرارة. ووسط تلك الفوضى التي اكتسحت جوف البيت وطغت على صخب العصافير المتنقلة بين اغصان السدرة، لبد واقفاً في موضعه في انتظار صفعة أمه المحكمة التسديد والتي لم تخطيء ولو لمرة واحدة جانب رقبته. ورغم رغبته الملحّة بأن يتلمّس بأصابعه تلك البقعة الملتهبة من عنقه، امتنع عن ذلك في محاولة مكشوفة لاغاظتها. وبعدما استبدل ثوبه بآخر نظيف تفوح منه رائحة الصابون صرخت به أمه من جديد وهي تشير نحو الماعون المركون في رماد الموقد:

- هيا.... سارع بتناول الزقوم!

وتناول (الزقوم) على عجل دون أن يكف عن التلفّت حوله وهو في أشد لهفة ليغادر البيت سريعاً، فقد قال (هاني) إن الجنود سيرفعون الحطام صباح الغد..... إذن يجب أن يسبقهم فيذهب إلى هناك قبل غروب الشمس. لكن أمه بقيت قابعة عند الباب تلقم طفلتها ثديها وتدير بيديها المغزل، فتلهّى لبعض الوقت بالاستماع إلى الراديو المركون في كوة في الجوار، مستمداً من الأناشيد العسكرية الصادحة الحماس اللازم لانجاز مهمته دون تهيّب.

اتجه نحو الحظيرة، ووسط جئير الماشية وقع على العصا ذات الرأس الحديدي المسنودة إلى جدار المعلف. ورغم إيمانه بأنها لا تشبه بندقية بحال من الأحوال لكنه فكر بأن خطورة المهمّة تقتضي منه التسلّح بشيء ما. وعندما غادر الحظيرة لم يفاجأ بأن تعود أمه لصراخها ملغية بذلك عطسة كانت على وشك الانطلاق من منخريها المتوترين:

- أما اكتفيت بوحل النهر لتلطخ ثوبك هذه المرة بالروث؟

فنفض عن ثوبه بقايا القش والأعشاب الجافة.

كانت الشمس قد صبغت قمة سدرة البيت بشعاعها البرتقالي عندما سنحت أمامه الفرصة، فقد اضجعت أمه الطفلة في المهد وولجت الحجرة لإعداد العشاء، فسارع بمغادرة البيت غير آبه بابهام قدمه الذي تفجّر منه الدم بعدما تعثّر بالعتبة. واخترق الأزقّة الجانبية. وأفعمت أنفه روائح الأطعمة التي تعدّ على المواقد. وغادر القرية من طرفها الشرقي يتقدّمه ظله لمسافة بعيدة. وواجهته الجبال وقد شابت لونها الوردي مسحة بنفسجية تخددها لطخات زرق كانت تكبر كلما أمعنت الشمس في انحدارها نحو غابات النخيل.

وقف ازاء التل وقد أنهكه الركض شاعراً بدقات قلبه تتسارع في صدره. وجال حوله بنظرة متفحصة.... لا أحد. وكانت العصا قد غدت في يده بندقية مثقلة بالرصاص فصالبها على امتداد ذراعه وشرع بارتقاء سفح التل زحفاً.

- أنت... أين تراك تذهب؟

أجفل على صراخ انطلق من تحت، وكان قد أوشك على الاقتراب من القمة فاختضّ جسده بعنف وتدحرج للأسفل. وسكن إزاء بسطالين موحلين كانت عقدة قيطان أحدهما على وشك أن تنحل. وببطء رفع رأسه للأعلى متنقلاً ببصره عبر فردتي السروال الخاكي الذي تعلوه قمصلة عسكرية بأزرار نحاسية يطل من خلال ياقتها وجه (هاشم) الحارس الذي كاد يضيع وسط الكوفية الملفوفة حوله. وكان قد تنكّب بندقيته جاعلاً فوهتها للأسفل.

- هيا... ارني شطارتك في الركض وإلا أدميت لك أذنك!

من أين جاء؟ لا شك أنه قدم من الجانب الآخر للتل.

- نظرة واحدة.... واحدة فقط ألقيها على الجانب الآخر من التل أعود بعدها يا عم هاشم!

وأرسلت سيكارة الحارس سحابة دخان كثيفة قبل أن تسقط وتنسحق تحت البسطال.

- لا يا ولدي... لا فالجنود لم يصلوا بعد لدفع حطام الطائرة وقد تكون هناك قنابل!

وبعدما سلك حلقه وتمخط بعنف ماسحاً يده على سرواله المجعد أردف:

- أترضى أن تموت وأنت لا تزال طفلاً بعمر الورد؟..... بووم... هكذا تنفجر القنبلة فتتحول إلى أشلاء!.... هيا... هيا اخطف رجليك نحو القرية، فالشمس قد أوشكت على المغيب.

عاد خائباً نحو القرية يتبعه ظله هذه المرة. وبقي العم (هاشم) منتصباً في موضعه يتابعه بعينيه وحديد بندقيته يومض من وقت لآخر. وكانت بندقيته هو قد عادت مجرد عصا لا خير فيها.

وواصل السير بخطوات متعثّرة دون أن يكف عن الالتفات إلى الوراء حتى رأى الحارس يتخذ طريقه نحو الحقول فتخفّى خلف جذع شجرة وانتظر. وعندما غاب الحارس عن عينيه سارع بالعودة راكضاً نحو التل.

يجـــب أن أسبقهم.... سأجعلهم يتوسلون بي لأشاركهم اللعب.... فقط لو وقعت على قطعة صغيرة من الطائرة.... ولتكن بحجم الدرهم سأستطيع أن أبهرهم بها... سأبصق على تلك القطعة المعدنية وأنظفها بثوبي وأريهم اياها... انظروا... إنها من طائرة فانتوم!.... ستتسع عيونهم بالتأكيد وسيحسدونني وسأثبت لـ (هاني) أن القفز بخفة ليس بالشيء المهم على الاطلاق... سأثقبها واجعلها على شكل قلادة أضعها في عنقي وأريها لكل من يشك بشجاعتي!

عند القمة دوّمت الرياح حول رأسه، أو هكذا خيل له شاعراً بأعماقه تتقلص في جوفه في انتظار المفاجأة. لكن الذي أدهشه حين نظر إلى الجانب الآخر من التل أنه لم ير ما يثير الانتباه على الاطلاق: فالأرض تمتد حتى الجبال البعيدة التي غدت بنفسجية اللون، لا شيء يعتور انسيابها سوى نباتات شائكة وأشجار برية استطالت ظلالها لمسافة طويلة. إذن أين هي الطائرة؟ هل يعقل أن ذلك الدوي الذي هز القرية صباح اليوم وعمود الدخان الذي ارتفع فوق التل كانا دون نتيجة؟!

وقبل أن يهبط عبر السفح الآخر للتل تلفّت حوله فرأى العم (هاشم) وقد أصبح بحجم طائر أسود صغير. وتقدم خلال الأرض الشائكة بساقين مثنيتين وبندقية مهيأة للاطلاق. وعاد إليه الأمل والتهب حماساً عندما وطئت قدماه أرضاً سوداء تماماً يغطيها الرماد. لا شك أنها سقطت هنا. وكاد قلبه ينفجر في صدره. وتوحدت حواسه الخمس بحاسة النظر فقط فهالته تلك الكتلة التي اعترضت سبيله. كانت كبيرة الحجم تكثر فيها النوابض والأنابيب والاستطالات المعدنية البراقة، وثمة رائحة خانقة تتصاعد منها. تلمّسها بحذر. لا تزال دافئة رغم أن الطائرة سقطت منذ الصباح. وكاد يصاب بخيبة أمل حقيقية عندما لم يستطع اقتطاع أي جزء منها. كما وأدرك استحالة سحب هذه الكتلة نحو القرية. فتركها آسفاً وواصل تقدمه عبر الأرض المحروقة. وهذه المرة تعثر بقطعة معدنية مستوية طويلة عليها كتابات منتظمة كأنها خطّت بالمسطرة. وكوّر شفتيه وبسطها في محاولة يائسة ليتهجأ تلك الكلمات... لكنه لم يستطع... وأدرك أنها ليست كتابة عربية.... لا شك أنها كتابة امريكية... نعم... فالفانتوم تصنع في أمريكا... امريكا عدوة الشعوب - كما يقول معلم الوطنية...

هذه القطعة لن تنفعه أيضاً فهي تكاد تكبره حجماً. تقدم لمسافة أخرى وبغتة كاد يصرخ فرحاً: فأمامه وسط نباتات شائكة التمع شيء ما ببريق خاطف. هيأ البندقية وتقدّم. ودس يداً راجفة وسط الأشواك ليمسك بذلك الشيء الذي فاجأته برودته. كان أحمر اللون عليه حزوز منتظمة كأنه مزهرية... لا بل إنها مزهرية حقاً!... ووسط دوامة الفرح التي اكتسحته جرّب أن يقيم تلك المزهرية على راحة يده المبسوطة، لكنها سرعان ما مالت جانباً. وعندما تفحص قاعدتها المستديرة رأى ثمة قطعة معدنية مقوّسة إلى الخارج لا تسمح لها الاستقرار بشكل ثابت.

أصبح من العبث الاحتفاظ بالعصا، فالمهمة انتهت. وبضربة واحدة شمرها بعيداً، وهرول باتجاه التل مخفياً المزهرية تحت طيات ثوبه. وعندما أصبح فوق القمة جلس ليلتقط أنفاسه اللاهثة وليحدق بمزهريته من جديد.... أين أنتم يا أصدقائي لتروا ما الذي استطعت الحصول عليه؟ ودّ لو يصرخ بملء حلقه، لكنه تلفت حوله وهو يفكر بالعم (هاشم). ومرة أخرى حاول أن يقيم المزهرية على الأرض ومرة أخرى أيضاً مالت جانباً.

بقفزات معدودة انحدر للأسفل، وأمامه كان قرص الشمس البرتقالي قد شرع يغوص وسط غابات النخيل البعيدة، وفوقه ثمة غيمة تكاد تقطردماً. وكانت يده الممسكة بالمزهرية قد اخضلّت بالعرق. بطبيعة الحال ستصرخ أمي في البداية وتحاول أن تمنحني صفعتها المحكمة التسديد... عندها سأريها اياها... ستتسع عيناها الملطختان بالكحل... وبعدما تتلمس بطرف الفوطة أنفها تختطف المزهرية من يدي لتضعها فوق الراديو.

لكنها لا تستقر على قاعدتها!... وعاد يتفحصها بنظرة مدققة فاصطدم بصره بتلك القطعة المعدنية اللعينة المقوّسة. ضربة واحدة وتستوي القطعة فتستقر المزهرية باعتدال. على يساره لمح صخرة كبيرة ناتئة من الأرض، إنها تفي بالغرض. قرفص قربها ورفع المزهرية عالياً. في تلك اللحظة لاح لعينيه العم (هاشم) وقد أصبح بحجم أكبر. إنه في طريقه ليحرس حطام الطائرة في انتظار مقدم الجنود. لا يهم، فقد حصلت على بغيتي.....

وهوى بها نحو الصخرة....

بووم!!.....

- عم ها.....

(بغداد)